الفصل التاسع

النوبى.. البيه البواب

تفخر الثقافة المصرية بثرائها وخصوصيتها القائمة على تنوع مشاربها، إلا أن الأمر اختلف كثيرًا فى السنوات الأخيرة، إذ صار ذكر النوبة المصرية، مقرونًا بمؤامرات تقسيم مصر إلى أقاليم، وبدلًا من تكليل تضحيات أبناء النوبة الذين تحملوا مرارة التهجير القسرى، حاملين موروثهم الثقافى على أكتافهم من أجل مستقبل مصر، لم تعمل الدولة على صيانة التراث النوبى، بل أصرت السياسات الثقافية للأنظمة المتعاقبة، على عزل النوبة ثقافيًا وكأنها عضو غريب على جسد الثقافة المصرية، وصار الكثيرون يتهمون أبناء النوبة بالدعوة إلى تقسيم البلاد.

وعلى مدار مشوار السينما و التليفزيون لم تحاول الأعمال الفنية التى تعرضت لشخصية النوبى التعمق بشكل أكبر فى تلك الشخصية أو الاقـتراب من البيئة النوبية ذات الموروثات الخاصة الشديدة الخصوصية.

ويعتبر الفنان الراحل على الكسار من أوائل من قدم شخصية النوبى على خشبة المسرح حينما ابتدع شخصية الرجل النوبى البسيط طيب القلب سليم الطوية «عثمان عبد الباسط» الذى يقوم بالأعمال البسيطة و له لكنة خاصة و طريقة مميزة فى الكلام، نقلها بعد ذلك إلى عالم الشاشة الفضية فى أفلام مثل «سلفنى ٣ جنيه» «على بابا و الأربعين

حرامى» و «ألف ليلة و ليلة»، والذى أحبه الجمهور ولا يزال بسبب خفة ظله وفلسفته العميقة ومواقفه المضحكة.

وكان الكسار هو الوحيد الذى قدم النوبى كبطل للعمل، وبعده ظلت شخصية النوبى فى سينما الأبيض و الأسود كشخصية ثانوية تقوم بالأعمال البسيطة كالخادم و السفرجى و البواب، وتم تنميط شخصية الإنسان النوبى فى السينما عبر عقودها الطويلة دون أن تحاول أن تقدم الإنسان النوبى بشكل مغاير أو أكثر عمقا أو تبحث له عن دور مختلف فى المجتمع.

وبرغم ذلك استطاع بعض الممثلين ذوى الحضور الخاص فرض أنفسهم على الشاشة برغم بساطة أدوارهم، ولا يمكن أن ننسى الفنان «محمد كامل» الذى ربما لا يعرف أحدنا اسمه الحقيقى و الذى اشتهر فى أفلام الأبيض و الأسود بدور «عم إدريس»، واستطاع بخفة دمه و حضوره أن يفرض وجوده بجانب النجوم مثل شادية و صباح، و كذلك الممثل الجميل «محمد الأدندانى» الذى قدم كالعادة أدوار البواب و السفرجى فى السينما و التليفزيون بالشكل الخفيف الظل المعتاد كما فى «حكايات ميزو» و «البيه البواب» و مسرحية «عش المجانين».

وظلت مهن مثل السفرجى و البواب حكرا على الرجل النوبى تقريبا فى كل أفلام ما قبل ١٩٥٢م، فهل كان ذلك مجرد تنميط للسينما أم هو تمثيل للطبقية الموجودة قبل الثورة و تهميش بعض الطبقات المكونة للشعب المصرى.. و السؤال الأهم لماذا لم يتغير ذلك لاحقا بعد تغير المناخ فى مصر بعد ثورة ١٩٥٢م ؟

وقد استمر نفس النمط فى أفلام ومسرحيات ما بعد ثورة يوليو، دون أى تغير يذكر و دون الاقتراب من البيئة النوبية نفسها إلا نادرا، ومن الأفلام النادرة التى حاولت الاقتراب من البيئة النوبية نفسها و لكن بشكل شديد السطحية و من خلال الإطار الكوميدى التقليدى، فيلم «الحقيقة العارية» لإيهاب نافع و ماجدة و الذى تدور أحداثه خلال بناء السد العالى، حيث نرى شخصية الفنان «عبد المنعم إبراهيم» عندما ترسو السفينة النيلية بجانب إحدى القرى النوبية، فيفتن الرجل بفتاة نوبية و يتزوجها، وهنا نشاهد من بعيد إشارة إلى خصوصية الحياة فى القرى النوبية ووجود عادات خاصة دون أن يقترب العمل منها بل اكتفى كالعادة بالإشارة إلى النوبى باللغة غير المفهومة و الجلباب الأبيض فى إشارة نمطية لطيبة القلب.

ولا يمكن إغفال بعض الأعمال المهمة والقليلة جدا التى تعرضت للبيئة والإنسان النوبى، مثل أفلام «الطوق و الأسورة» و «فى العشق والسفر» و «عرق البلح»، وهى أعمال تنتمى إلى عالم النوبة، وإن كانت تختلف عن النوبة بما تحمل من مفردات أخرى خاصة سواء فى تركيبة الشخصيات أم فى البيئة و العادات و الموروثات، تتحدث تلك الأعمال عن قرى بعيدة عن المدنية وهى فى الأغلب قرى تنتمى إلى جنوب الصعيد الجوانى و ليس إلى النوبة.

وقد كانت الموسيقى النوبية أكثر حظا، وهى من الفنون التى استطاعت أن تخلق لنفسها دربا خاصا ومميزا فى الثقافة الفنية المصرية دون أن تذوب فيها. حتى يكاد الفن النوبى يكون فنا مصريا مستقلا،

فهو مصرى بالاسم، لكنه إفريقى الطابع وهو ما يعطى للثقافة المصرية طابعا آخر، إضافة إلى باقى الفنون المتوارثة عبر الأجيال.

ويعد الفنان محمد منير من أشهر فنانى النوبة الذى نجح فى عولمة هذا الفن وتطويره، ونشره من خلال أغنيات شهيرة مستوحاه من البيئة النوبية الصميمة، وقد سبقه من قبل الفنان النوبى أحمد منيب الذى يعد الأب الروحى للفنان محمد منير.

ويقول الفنان والناقد الكبير الدكتور زين نصار، أستاذ النقد بأكاديمية الفنون المصرية، فى تقرير لجريدة «الشرق الأوسط» اللندنية عن الفن النوبى ودوره فى الثورة المصرية، : «إن التراث النوبى الفنى موجود فى كيان كل المصريين، ويتم استدعاؤه بقوة فى أوقات كثيرة، منها فى فترات الثورة المصرية، فى ميدان التحرير قبل تنحى الرئيس مبارك كان الشباب المصريون يغنون أغنيات نوبية لمحمد منير وأغنيات أخرى له مثل (حدوتة مصرية)، لأن الثورة لم يكن لديها ما تستقوى به سوى هذا التراث وغيره من التراث الموسيقى».

ويمضى الدكتور نصار مؤكدا دورا آخر للفن النوبى كملهم لكبار المبدعين المعاصرين، ويقول: «إن التراث الشعبى المصرى، بما فيه التراث النوبى، كان مصدر إلهام كبيرا لأعمال فنية كبيرة، وهناك كونشرتات موسيقية، منها مثلا للفنانين سعيد مطر ورفعت جرانة».

الموسيقى والفنان والمؤرخ النوبى فكرى كاشف، قال لـ«الشرق الأوسط» إن أى فن عالمى يرتبط بمجتمعه والثقافة التى تنبع منه.

وعن مقارنة الفن النوبى والعربى، يقول: «إن كل الموسيقى العربية والتركية واليونانية والفارسية كلها من عائلة واحدة، تتبع الـ٧ تون

أو السلم الموسيقى السباعى، بينما الفن النوبى يختلف عن هذه المجموعة فى كون موسيقاه تنتمى إلى السلم الخماسى الإفريقى».

وعن سر هذا الاختلاف، يقول كاشف: «إن الجغرافيا أو البيئة هما السر فى تميز واختلاف الفنون النوبية عما عداها من فنون فى منطقتها المحيطة، لأن نهر النيل يسير بشكل سلس وعادى من أقصى الشمال حتى منطقة أسوان جنوب مصر، ولذلك يستطيع أى إنسان أن يأتى، من إيطاليا مثلا، عبر نهر النيل، ويدخل فى أعماق مصر حتى الجنوب، فى رحلة سهلة حتى يصطدم بمنطقة الشلالات القاسية والانكسارات فى قلب النهر التى يعيش خلفها أهل النوبة والتى تبدأ مظاهر ثقافتهم من هذه المنطقة، فنجد فنونها أقرب للطابع الإفريقى بسبب السلم الخماسى، فلا شك فى أن جغرافيا الأرض تؤثر فى طبيعة الشعب وموسيقاه. فعند هذه المنطقة، نجد لغة أخرى وفنونا أخرى، بمعنى أنه عالم آخر يكمن خلف شلالات النيل».

ويشير فكرى كاشف إلى الصدمات التى تعرض لها أهل النوبة - على حد وصفه - ويقول: «إن السدود والخزانات المبنية على النيل تسببت فى تهجير النوبيين من أماكنهم المستقرة إلى أماكن أخرى صحراوية، مما أحدث تغيرا فى موسيقاهم التى كانت متواصلة مع استقرارهم، وذلك لتغير البيئة، وبدت ملامح التغير فى موسيقى النوبة متمثلة فى تغير الاعتماد على الدفوف البسيطة إلى إدخال آلات موسيقية أخرى مدنية كالأورج وخلافه، وإن كان السلم الخماسى هو صاحب الفضل فى الحفاظ على الطابع النوبى الإفريقى برغم التغيرات المدنية لأهل النوبة».

مشكلة أخرى للفن النوبى يشير إليها فكرى كاشف متمثلة فى اللغة النوبية، فيقول: «إنها مهددة بالانقراض برغم وجود فنانين نوبيين وصلوا للعالمية مثل حمزة علاء الدين الذى وصلت شهرته لأمريكا واليابان». ويقول: «إن مشاهير النوبة، مثل محمد منير وأحمد منيب، لم يقدموا فنا نوبيا محضا وإنما قدموا الموسيقى النوبية بكلمات عربية، لأن الاستماع للغة النوبية غير مألوف بين العرب ولا حتى بين المصريين، وهى مسألة مرتبطة بالثقافة والمزاج والأذن التى تسمع، فرغم وجود شباب يستمعون مثلا إلى أغان أجنبية لمايكل جاكسون وغيره، لكن قلما ما نجد أذنا تستمع إلى الغناء النوبى بلغته وموسيقاه، وهو أمر ملحوظ حتى بالنسبة للفن السودانى الذى ينطق باللغة العربية، وهو أمر ربما يرجع لشعبية الرتم الإفريقى وأيضا لأن الفن الإفريقى، والنوبى خاصة، لم يأخذ حقه إعلاميا».

أما المفكر السياسى النوبى الكبير خليل فيتحدث عن تأثير الجانب السياسى والاجتماعى على الفن النوبى، قائلاً: «إن الفن النوبى يلقى قبولا حسنا من جميع المصريين، كما أن المطربين النوبيين يحظون بشعبية كبيرة كمحمد منير، وله أصداء جميلة على المستوى الاجتماعى والشعبى، ولكن السياسة ألقت بظلالها على أوضاع النوبيين من خلال المشروعات المائية على نهر النيل ومشروعات الاستثمار التى خرج بسببها النوبيون من بيوتهم وهاجروا بعيدا عن الأرض الزراعية متجهين إلى القاهرة والإسكندرية، وهو واقع أثر كثيرا فى فنونهم».

وحول صورة النوبى فى الدراما والأدب وتأثير ذلك فى شعبية الفن النوبى، قال خليل كلفت: «من الأمور المؤسفة، السخرية كثيرا من

النوبى وذكائه، وكونه يظهر بصورة البواب دائما على الشاشة،إلا إننى أعود وأقول إن مأساة النوبة فى تهجيرهم من أراضيهم جعلت لهم وضعا استثنائيا، حيث لم يكن أمامهم فى تلك الفترة سوى العمل بوابين وحراسا وطباخين فى المجتمعات الجديدة التى بنيت، ولذلك قلت لأصدقائى الذين ينتقدون رواية الدكتور علاء الأسوانى الجديدة (نادى السيارات) لتصويرهم فى الرواية فى الإطار نفسه، إن هذا مكان استثنائى، حيث كان النادى لا يدخله إلا علية القوم ومعهم حاشيتهم ومنهم النوبيون.

ومع ذلك، فالمجتمع النوبى مجتمع مفتوح للغاية ومتعلم ومثقف، ونسبة النخبة النوبية فى مجتمعهم أكبر بكثير من نسبتهم الإجمالية العددية، فهم متحضرون للغاية وذواقة، ويبدو ذلك فى موسيقاه الرائعة التى تطرب من يستمع إليها.

من ناحيته يرى الناقد النوبى أحمد سوكارنو عبدالحافظ أن السينما و التليفزيون المصرى لعبا دورا خاصا فى تصوير المجتمع النوبى من خلال تقديم شخصيات نمطية معينة فى الأفلام و المسلسلات و بصورة تكاد تكون متكررة، مما ساهم فى غرس بذور العنصرية فى نفوس بعض المصريين، كما لا نستطيع أن نغض الطرف عن آثار هذه المعالجة السينمائية و التليفزيونية على أفراد مجتمع النوبة سواء فيما يتعلق بتكوينهم النفسى أم انتمائهم الاجتماعى نحو المجتمع الأكبر.

وهناك أفلام سينمائية تقدم المواطن النوبى فى قوالب ثابتة لا يمكن الخروج منها بأى حال من الأحوال، فنجد النوبى فى هذه الأفلام

يتقمص دور البواب أو المضيف أو الخادم، ولم نشاهد مطلقا نوبيا مثقفا فى هذه الأعمال «الفنية»، فمثلا، نراه فى أفلام إسماعيل ياسين بالعمامة والجلباب يتحدث اللغة العربية بلكنة نوبية مخالفا قواعد اللغة مما يدعو إلى السخرية والضحك فى نفس الوقت، كما يمكن أن يتخلل حديثه بعض الكلمات النوبية بدون داع.

ومما يبين أن دور المضيف محجوز للشخصيات النوبية فى مثل هذه الأعمال هو أن إسماعيل ياسين فى فيلمه «الفانوس السحرى» يتقمص هذا الدور من خلال طلاء وجهه باللون الأسود ومحاولة نطق بعض الكلمات غير المفهومة.

وإلى جانب أعمال على الكسار، فقد كانت هناك أعمال أخرى ساهمت فى رسم الصورة النمطية لأبناء المجتمع النوبى: ففى فيلم «يا حلاوة الحب»، بطولة محمد فوزى ونعيمة عاكف ومن إخراج حسين فوزى، نجد الخادم النوبى يقول: يا سعادة البيه... يا سعادة البيه... التلغراف يا سعادة البيه... خير يا سعادة البيه... الله لا يقدر ولا يكون. وكذا فى فيلم «حبى الوحيد» الذى قام ببطولته عمر الشريف وكمال الشناوى ونادية لطفى فإن المخرج لم يجد سوى طفل صغير ذى بشرة سوداء ليلعب دور الخادم فى منزل عمر الشريف.

وقد يقول قائل إن هذه الشخصيات الهامشية التى ترمز للمجتمع النوبى تنحصر فى الأفلام القديمة. ولكننى أقول إن الأفلام الحديثة تحذو حذو الأفلام القديمة وتسير سيرا حثيثا فى نهجها، فشخصية «عبده» فى فيلم «انتبهوا أيها الأزواج» بطولة بوسى وسعيد صالح وهشام عبد الحميد

وإخراج حسن الصيفى هى فى الواقع شخصية نوبية ويقوم بدور عبده الخادم فى منزل «هشام عبد الحميد» ممثل من ذوى الأصول النوبية.

وكذلك الحال فى فيلم «حكاية حب» بطولة حسين فهمى وآثار الحكيم وصلاح السعدنى نجد الخادم «عم صالح» يقوم بدور النوبى الذى لا يعرف اللغة العربية حيث يرد على سؤال حسين فهمى «الست شمس فين؟»: على فكره ده قاعد مع الدكتور فؤاد وكذلك نجد شخصية النوبى كبائع روبابيكيا فى فيلم «خلف أسوار الجامعة» بطولة سعيد صالح وصلاح السعدنى ويونس شلبى وإخراج نجدى حافظ.

المسلسلات التليفزيونية

وبرغم أن الأفلام السينمائية دأبت على السخرية والاستهزاء بأهالى النوبة، إلا إننى دائما أقول إن معظمها أفلام قديمة وربما لا يراها سوى رواد السينما، وقد ولى زمن العنصرية والنظرة الدونية التى يتجرعها النوبيون من هذه الأفلام. ولكن ما يدعو إلى الأسف هو أن يسهم التليفزيون أيضا فى دعم ثقافة العنصرية والترويج لها من خلال المسلسلات التليفزيونية التى تدخل المنازل من أوسع أبوابها ولا تتوخى الحرص فى إهانة المواطنين وهم داخل منازلهم. ومن المعروف أن بعض كتاب وأدباء النوبة تصدوا لهذه السهام العنصرية المسمومة التى توجه إلى الصدور.

وينهى «سوكارنو» شهادته، قائلاً:» خلاصة القول فإن السينما والتليفزيون لا يعكسان الواقع الذى نعيشه بل يصنعان الواقع والمواقف التى قد يتعرض لها النوبيون فى حياتهم اليومية من قبل بعض ضعاف النفوس والذين قد لا يدركون حقيقة أصولهم المتواضعة. والجدير بالذكر

أن السينما المصرية والتليفزيون المصرى قد قاما بدور أساسى فى زرع بذور العنصرية فى نفوس بعض المصريين وخاصة فى المدن حيث تعرض الكثير من أبناء النوبة لمواقف عنصرية بغيضة مما بث مشاعر الحقد والكراهية فى نفوسهم وجعلهم يشعرون بالمهانة والغربة فى هذا الوطن».

* * *